الدور الثانى

صلاح الدين فى الشام

تُوفى نور الدين وترك ملكه إلى ولد الملك الصالح إسماعيل ، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك إلا الحادية عشرة ؛ فتولى رعايته وتدبير ملكه شمس الدين محمد بن عبدالملك المقدم ؛ فأخذ الأمراء النورية فى الشام يتنافسون ، كل منهم يعمل على إضعاف الآخرين والإيقاع بهم ، والأمير الصغير لا يدري من الأمر شيئاً ، فكان العوبة فى يد أولئك الأمراء الذين كانوا إذا رأوا واحداً منهم قوى عليهم ، ركنوا إلى محالفة الأفرنج

نهض سيف الدين ابن عم الملك الصالح وصاحب الموصل واستولى على ما كان لنور الدين من البلاد فى أرض الجزيرة ؛ وما استولى عليها إلا بذلك الجيش الذى كان قد طلبه منه نور الدين قبل وفاته ليغزو به الأفرنج كما يقول نور الدين وفي نفسه أن يحارب به صلاح الدين فى مصر ، استولى سيف الدين على بلاد الجزيرة ، وركن الأمراء الآخرون إلى الاستقلال عما فى أيديهم ، فكتب صلاح الدين إلى ابن المقدم والأمراء النورية يعاتبهم على تقاعدهم عن نصرة الملك الصالح ، ووقوفهم جامدين ، وبلاد سيدهم يستولى عليها الطامعون ، ويذكر لهم أنهم إن لم ينصروا ابن مولاه ، فأنه يحضر

بنفسه ويقتص منهم ومن غيرهم ، ولكنهم أهملوا كتابه ولم يعبأوا به

ولولا ما كان عليه الأفرنج فى ذلك الوقت من الانقسام الذى يشابه ما كان عليه المسلمون ، لما تأخروا لحظة واحدة فى الاستيلاء على أجزاء مملكة عدوهم نور الدين ، لكنهم كانوا قد فجعوا بموت ملكهم أمورى ، وتولى ولده الصغير بلدوين الأبرص كما قدمنا ، فكانت حال المسلمين والأفرنج سواء

طلب الأمير شمس الدين بن الداية والى حلب إلى الملك الصالح الرحيل إليه ومغادرة دمشق ، وأرسل في ذلك سعد الدين كمشتكين ، فرده أهل دمشق أولا ، ثم عاد إليهم ثانية فرحل معه الملك الصالح ، ولما وصل به إلى حلب قبض كمشتكين هذا على ابن الداية وأولاده وغيرهم من أمرائها وأودعهم السجن ، ثم انحاز إلى جانب الأفرنج ليتقوى بهم ، يدلنا على هذا ما قاله صلاح الدين فى كتاب من إنشاء القاضى الفاضل . أرسله إلى الخليفة المستضئ بالله فى بغداد « وتوافت إلينا الأخبار ، بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والأفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الأسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعماد ، الذين خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للقعود ، قد هدوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر ، والنهى عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الأفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً »

على هذا كانت فلسطين والشام مملكتين عظيمتين ، يتولى شؤنهما أميران طفلان ، لا قائد يقودهما ، فكان من حق صلاح الدين أن يقوم بالغزو من غير توانٍ ولا تأخير ، لكنه لما كان غرضه ألا يتعرض للأفرنج لخوفه الشديد على ميراث نور الدين وطمعه فيه حتى يقوى بأهله عليهم ، ظل يراقب الحوادث مراقبة دقيقة ، ليثب في الوقت الملائم ، لأنه لم يشأ أن يثير غضب أهل الشام عليه ، خشية أن يعرقلوا أعماله ؛ ولهذا كان على الدوام يكتب إلى الملك الصالح ، فيظهر له خضوعه وخشوعه وولاءه ، فضرب السكة باسمه ، وخطب له على المنابر ، ثم أظهر للسوريين شدة مراقبته وخوفه على مصالح الأمير الصغير ابن سيده وأستاذه

لما انتقل الملك الصالح إلى حلب ، وتغلب كمشتكين على ابن الداية وغيره وسجنهم ، خافه ابن المقدم ومن معه من الامراء في دمشق ، فراسلوا سيف الدين صاحب الموصل ، وطلبوا إليه أن يعبر الفرات ويقصد بلدهم لنجدتهم ، فأوجس في نفسه خيفة من ابن عمه الملك الصالح ، وظن أن الأمر خديعة ومكيدة ، وخاف إذا وصل دمشق لأخذها ، قام من ورائه الملك الصالح وغدر به ، فأبى عليهم ما طلبوا ، وما طلبوا حضوره إلا ليكون لهم نصيراً على كمشتكين ، لتوقعهم أنه إن استقر به الحال في حلب ، عاد إليهم وأوقع بهم ، كما فعل بابن الداية من قبلهم

ولم يقف امتناع سيف الدين هذا إلى حد الأباء فحسب ، بل صالح ابن عمه الملك الصالح ، الذي أقره على ما بيده من البلاد التي كانت لأبيه نور

obeikandi.com

الدين ، فخاف أمراء دمشق خوفاً شديداً ، وأدركوا الخطر المحدق بهم ، فراسلوا صلاح الدين وطلبوا إليه الحضور لينقذهم من خطر يداهمهم

ما كان لصلاح الدين أن يتمنى أكثر من هذه الدعوة لتكون مبرراً له عند أهل الشام فى غزوه للبلاد ، فلم يتأخر لحظة واحدة ، وأسرع بالمسير ، فاخترق الصحراء دون أن يكترث بوجود الأفرنج بينه وبين دمشق ، اعتماداً منه على قوته ، ووثوقاً بنفسه ، وعلما منه بأحوال هؤلاء بعد منازلته إياهم كما سبق

ويؤخذ من عبارة استيفن سن أنه كتب خليفة بغداد فى أن يكون سلطان مصر والشام ، ليقوم بحرب الأفرنج الذين أهمل محاربتهم أتباع الملك الصالح ، ولم يقفوا عند الكف عن قتالهم ، بل حالفوهم وعاهدوهم

فظهوره بمظهر المدافع عن الأسلام أعانه كثيراً على توالى غزواته فى فلسطين والشام ، فقد جاءت إليه الأمداد من كل حدب وصوب

وعبارة اسيفن سن صحيحة فيما يختص بطلب الولاية ، فقد جاء فى الكتاب المتقدم الذى أرسله صلاح الدين إلى الخليفة ما نصه « وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجرد العزم فى قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه » إلى أن يقول « وإنا لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، فإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع !!! والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما فى الشام من

عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه ؛ والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه المهاد ، وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا »

ترك صلاح الدين مصر فوصل بصرى وقابله صاحبها بكل إكرام وكان من جملة الأمراء الذين كاتبوه فى المجئ ، ثم رحل عنها إلى دمشق ، فوصلها سلخ ربيع الأول سنة ٥٧٠ ﻫ (أواخر اكتوبر سنة ١١٧٤ م) ودخل دار أبيه وجلس فيها قليلا حتى سلمت القلعة ، فذهب إليها واستولى على ما فيها من الأموال والكنوز ، وفرقها على الأهالى الذين فرحوا بقدومه فرحاً كبيراً ، لما كانوا يعرفون عن أبيه وعمه ، وسابق خدماتهما فى بلادهم ، وقد مدحه الشعراء كثيرا ، من ذلك قول وجيش الأسدى

قد جاءك النصر والتوفيق واصطحبا ... فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلّق ثغراً لا نصير له ... فجئتها عامراً منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا
والشام لو لم يدارك أهلها اندرست ... آثاره وعفت آياته حقبا

وكان صلاح الدين يُظهر فى كل مكاتباته ومحادثاته أنه ما جاء إلى ديارهم إلا لنصرة ابن سيده الملك الصالح ؛ ومن ذلك ما قاله لرسول حلب بعد امتلاكه دمشق « يا هذا ! اعلم أنى ما وصلت إلى الشام إلا لجمع كلمة الأسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين » وذاكراً للناس أنه لو لم تفاجئُ المنيةُ نورَ الدين لأعان للناس أنه أدلى إليه بأبنه الملك الصالح ليكون في كنفه ، وموضحاً لهم أنه هو وحده القادر على حماية مُلك نور الدين ، والتغلب على الأفرنج ، إلى غير ذلك مما جعل أهل الشام لا يعارضون فيما يفعل ، بل تقدموا إليه بالمساعدة التى طلبها

أقام فى دمشق قليلا حتى رتب شؤنها ، وسلمها إلى أخيه سيف الأسلام طغتكين ثم انحدر منها إلى حمص فملكها دون قلعتها ، فترك من يحاصرها ويحفظ المدينة ويدبر شؤنها ، وسار منها إلى حماه ، وكان الوالى عليها الأمير عز الدين جورديك أحد أولئك الذين كانوا معه فى الحملة الثالثة على مصر ولم يشأ أن يخدم تحت حكمه ؛ امتنع جورديك أولا ، فأعامه صلاح الدين أنه إنما جاء ليحفظ البلاد من الأفرنج ، ويسترد ما استولى عليه صاحب الموصل من البلاد النورية ، وأنه فى طاعة الملك الصالح ، فسلمه المدينة مستخلفاً على قلعتها أخاه ثم قَبِل أن يكون رسولا لصلاح الدين إلى كمشتكين فى حلب يطلب منه فك الأسرى وإطلاق المسجونين وعدم العمل على تفريق كلمة المسلمين ، فأخذه كمشتكين وسجنه مع من سجن من قبل ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين ، فرحل هذا بعد

تسلمها إلى حلب الموجود بها الملك الصالح ووزيره كمشتكين ، ورأى أصحاب حلب ألا قبل لهم بمحاربة صلاح الدين في العراء فتحصنوا داخل مدينتهم مغلقين أبوابها في وجه ذلك القادم ، فأقام الحصار عليها ثالث جمادي الآخرة سنة ٥٧٠ (٣٠ ديسمبر سنة ١١٧٤) وأعلن أنه ما جاء معاديا إنما أتي ليخلص سيده الملك الصالح من شرذمة الأمراء وعلى رأسهم كمشتكين

خاف الملك الصالح من هذا القادم المتظاهر بالأخلاص ، ولم يثق كذلك بحالة كمشتكين ، وظن أن القوم قد تقابل صلاح الدين وتنخدع بما يقول ، فطاف بهم وقال « قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق » إلى غير هذا حتى بكى فأبكى الناس ، فتجمعوا حوله وقاوموا كل ما أبداه صلاح الدين من عنف في الهجوم

رأى كمشتكين أن أمر صلاح الدين عليهم جلل ، فراسل جماعة الأسماعيلية ، وهم باطنية شيعية ، وقد يكون لهم يد فى المؤامرة التى قام بها عمارة اليمنى فى مصر ، فأوفد إلى شيخ الجبل راشد الدين سنان ، وهو صاحب الدعوة الأسماعيلية بقلاع الشام ورئيس الطائفة كلها ، رسولا يطلب إليه مناصرته ومعاونته ، فأرسل إليه جماعة تغتال حياة صلاح الدين ، طلب هؤلاء المثول بين يدى صلاح الدين ، فأدخلوا خباءه ، ولم يكد يستقر قرارهم حتى انكشفت نيتهم ، فقتل عميدهم وأخذ الباقى فى الفرار فقتلوا تقتيلا ، ولم تؤثر مؤامرتهم أدنى تأثير فى حصار حلب

فلما خاب كمشتكين فى متمناه هذا عمد إلى ناحية الأفرنج ، وكان قد

أخلى سبيل رياموند أمير طرابلس وأسير نور الدين منذ عدة سنوات ، أطلقه كمشتكين عند قيامه بأمر حلب ، فطلب إليه أن ينجده ، فصادفت هذه الدعوة ميل رياموند للأخذ بالثار لنفسه وقومه ، وكان في ذلك الوقت هو القيم على الملك بولدوين الرابع ملك القدس ، فأسرع بجيش نحو حمص ، فعلم بأمره صلاح الدين ، وما كان يخفى عليه خطر الأفرنج إذا غلبوا ، ففك الحصار عن حلب وقصدهم ، فلما علموا بهذا عادوا من حيث أتوا ، فسار إلى دمشق ، واستولى في طريقه على بعلبك

نظر الملك الصالح وأتباعه إلى ما وصل إليه أمر صلاح الدين ، وما استولى عليه من البلاد الشامية ، فراسلوا سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فقام وجند الجنود وجمع المؤن وغيرها ، وواصل السير بها حتى اجتمع بابن عمه الملك الصالح ، وانضم جيشه إلى جيش حلب ، وقصدوا جميعاً صلاح الدين ، فراسلهم في الصلح ورغبهم فيه ، حقناً لدماء المسلمين ، فلا يتخذ الأفرنج من هذا النزاع سبيلا إلى تملك البلاد واستعباد العباد ، وقدم لهم كل البلاد التى استولى عليها ، على أن يبقى في دمشق نائباً للملك الصالح فيها ، فأبوا عليه إلا أن يسلم كل ما بيده ، ويعود إلى مصر ، فتجهز لهم وخرج يقصدهم ، فنازلهم بالقرب من حماه وانتصر عليهم يوم تاسع عشر رمضان سنة ٥٧٠ (١٣ ابريل سنة ١١٧٥) انتصاراً عظيما حتى أصبح الواحد منهم لا يلوى على أخيه من شدة فزعه وخوفه ، وما زالوا فى فرارهم وهو من ورائهم يستولى على أثقالهم حتى دخلوا حلب ، فحاصرهم بها

عاد سيف الدين إلى بلده قلق البـال خائفاً يترقب وظن أنه إن سكن ولم يتأهب، فاجأه هذا المغير الذى ظهرت بسالته وشجاعته ، فقام على قدم الجـد والنشاط يجمع الجيوش من كل أطراف بلاده وما جاورها ، فجمع جيشاً بلغ عدده ستة آلاف مقاتل وتوجه به إلى مكان يعرف بتل السلطان حيث تقابل مع الجنود الصلاحية التي كانت قد وصلت بعد وصول جنود صاحب الموصل ؛ ولو فاجأ هؤلاء أولئك عند وصولهم لدارت الدائرة على الأجناد الصلاحية ، ولـكن قائد جند سيف الدين أخر القتال لغده ، فأعطى بذلك فرصة كبيرة لجيوش عدوه، فارتوت واستراحت ، ثم نازلتهم وجهاً لوجه وانتصرت عليهم انتصاراً باهراً وأسر عدد كبير من جنود الموصل وجرح غيرهم ، ووقعت غنائمهم كلها فى قبضة صـلاح الدين ؛ أما الذين بقوا من جيوش الموصل ، فولوا وجوههم نحو حلب . أما صلاح الدين فأنه سار بما غنم إلى بزاغة وتسلم قلعتها ثم سار منها إلى منبج واستولى عليها ثم قصد قلعة إعزاز أو عزاز وهى على بعد ١٥ ميلا من حلب فضيق عليها الحصار حتى سلمت إليه

وبينما هو يحصار قلعة إعزاز هذه إذ انقض عليه أحد الخوارج حين كان فى خباء أحد قواده وضربه على رأسه ضربة كادت تقضى عليـه لولا دروعه ؛ أما الخارجي فقد أرسل الله من قبض عليه وقتله، فدخل خارجي آخر ثم آخر ولـكن الكل لاقوا حتفهم، وقد بعث القاضى الفاضل كتاباً إلى الملك العادل يطمئن خاطره على هـذا الحادث يقول له فيه « السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصري حاصلة ، ولم ينله من

الحشيشي الملعون إلا خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها ، والركب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سراً » ويظهر أن هؤلاء الخوارج كانوا قد اندسوا فى صفوف حرسه بأغراء من كمشتكين ، كما اعتقد صلاح الدين ، إذ ذهب مسرعاً نحو حلب ليوقع العقاب عن دس هذا السم القتال ، فحاصرها وامتنع أهلها ولكن لم يطيقوا شدته ورأوا ألا قِبَل لهم بذلك فتراسلوا فى الصلح ، وكانت من شروطه أن يكونوا جميعا على من ينكث الأيمان أو ينقض العهود

ولقد خرجت لصلاح الدين فى هذا الحصار وهو الثالث إبنة نور الدين وأخت الملك الصالح ، وهي بنت صغيرة فقابلها بالحفاوة والأكرام ، وأعطاها من المال والهدايا شيئاً كثيراً ، وسألها عما يطلبه قومها فقالت : إنهم يريدون إعزاز ، فوهبها لها ، وردها إلى حلب بما يليق بمقام أبيها من التجلة والاحترام إذ أوصلها بنفسه وحرسه إلى أسوار المدينة

قام صلاح الدين بعد ذلك بفك أسر من أسر في تلك المواقع بعد أن أدى من العناية بجرحاهم ما أطلق ألسنة الجميع بمدحه والثناء عليه ، وكان فيهم أناس من علية القوم ، فعادوا يتحدثون بكرمه وجوده وشفقته وحسن معاملته ، ذاكرين ما قد أغدق عليهم به من الهدايا عند ما فك أسرهم بعد أن ضمد جروحهم ، فأصبحوا مدينين له بحياتهم ، ورغب كثير منهم فى الدخول تحت طاعته والانتظام فى سالك خدمته

ويظهر أن المخابرات التى دارت في مسألة الصلح المتقدم لم يكن يقصد

بها صلاح الدين سوي اكتساب الوقت ، لأنه ما كان ليرضى بأى حال من الاحوال التنازل عما استولى عليه ؛ أراد أن يكسب الوقت من جهة، وأن يظهر للناس عامة أنه ماجاء لغزو أو فتح ، بل جاء ينصر الأمير الصغير

لما رأى الملك الصالح شدة حصار المدينة اتفقت كلمته مع قومه على قبول صلح مع صلاح الدين يقضى بأقراره على ما بيده من البلاد التي افتتحها ، فأصبح صلاح الدين سيداً على دمشق وحمص وحماه ومدن كفر طاب وبعرين والمعرة ، تلك التى لا تبعد كثيراً عن حلب ، وبعبارة أخرى أصبح الملك الصالح وليس له من البلاد إلا حلب وما والاها

اتخذ صلاح الدين طريقه قافلا إلى دمشق فوصلها في شوال من السنة عينها (مايو سنة ١١٧٥) وبوصوله إليها وصلت إليه خلع الخليفة وأمر الولاية من قبله على مصر والشام، واعتراف من الخليفة له بأنه أصبح سلطاناً لهما وفى هذه الخلع يقول ابن سعدانى الحلبي

يا أيها الملك العزيز فضله		لقد غدوت بالعلى مليا
كفى أمير المؤمنين شرفاً		أنك أصبحت له وليا
طارحك الود على شحط النوى		فكنت ذاك الصادق الوفيا
أولاك من لباسه زخرفة		لم يولها قبلك آدميا
ناسبت الروض سنا وبهجة		حتى حكته رونقاً وريا

فأمر بقطع اسم الملك الصالح من الخطبة، وضربت النقود فى القاهرة باسمه بدل الملك الصالح، فكتب عليها « الملك الناصر يوسف بن أيوب »

أما جنده فقد وزع عليهم الغنائم كلها دون أن يبقى لنفسه شيئاً منها ،

وبهذا قام السلطان بعملين كبيرين الأول أظهر به كرمه وسخاءه ، والثاني أظهر به أنه رجل سياسي محنك بعيد النظر ، فقد نتج عن سلوكه هذا أن رغب جيشه فى الغزو ، وأصبح على استعداد تام للسير وراءه أنّى سار وحيث ذهب

ذلك سر من أسرار نجاح هذا الرجل العظيم في تلك البلاد النائية عن منبع قوته مصر

كان على السلطان بعد هذا أن يعاقب الطائفة الأسماعيلية على شر ما جنته أيديهم ، ومحاولتهم اغتياله ، فأخذ جيشاً وسار به إلى الجبل ، فأحرق بعض قراهم وخربها ، وكانت لهم قلعة يقيم بها رئيسهم شيخ الجبل سنان ، يسميها ابن الأثير مصيات ويسميها غيره مصياف أو مصيف ، فضيق عليها السلطان الحصار ، ومازال يشدد عليها حتى أرسل سنان إلى خال السلطان وهو صاحب حماه أن يتوسط فى الصلح فأجيب إلى ما طلب

قضى السلطان بهذه الغزوة على أحلام بقايا الفاطميين فى مصر ، فانقطع رجاؤهم في كل مساعدة تأتى لهم على يد هؤلاء الخوارج ، كما أنه قضى على آمال الأفرنج في هذا السيف نفسه ، ذلك السيف الذى طالما استلوه ضد المسلمين ، وهو مالم يستطع نور الدين أن يقضى عليه القضاء الاخير إذ كل مافعله بهم أن أبقاهم فى أمكنتهم دون أن يذهب لهم فيها

رحل السلطان إلى دمشق ، وصرف العساكر إلى أوطانهم ليتمتعوا ثم واهلوهم بما غنموا ، وليستريحوا من عناء الحرب ومتاعبها لا سيما وأنه قد هادن الأفرنج

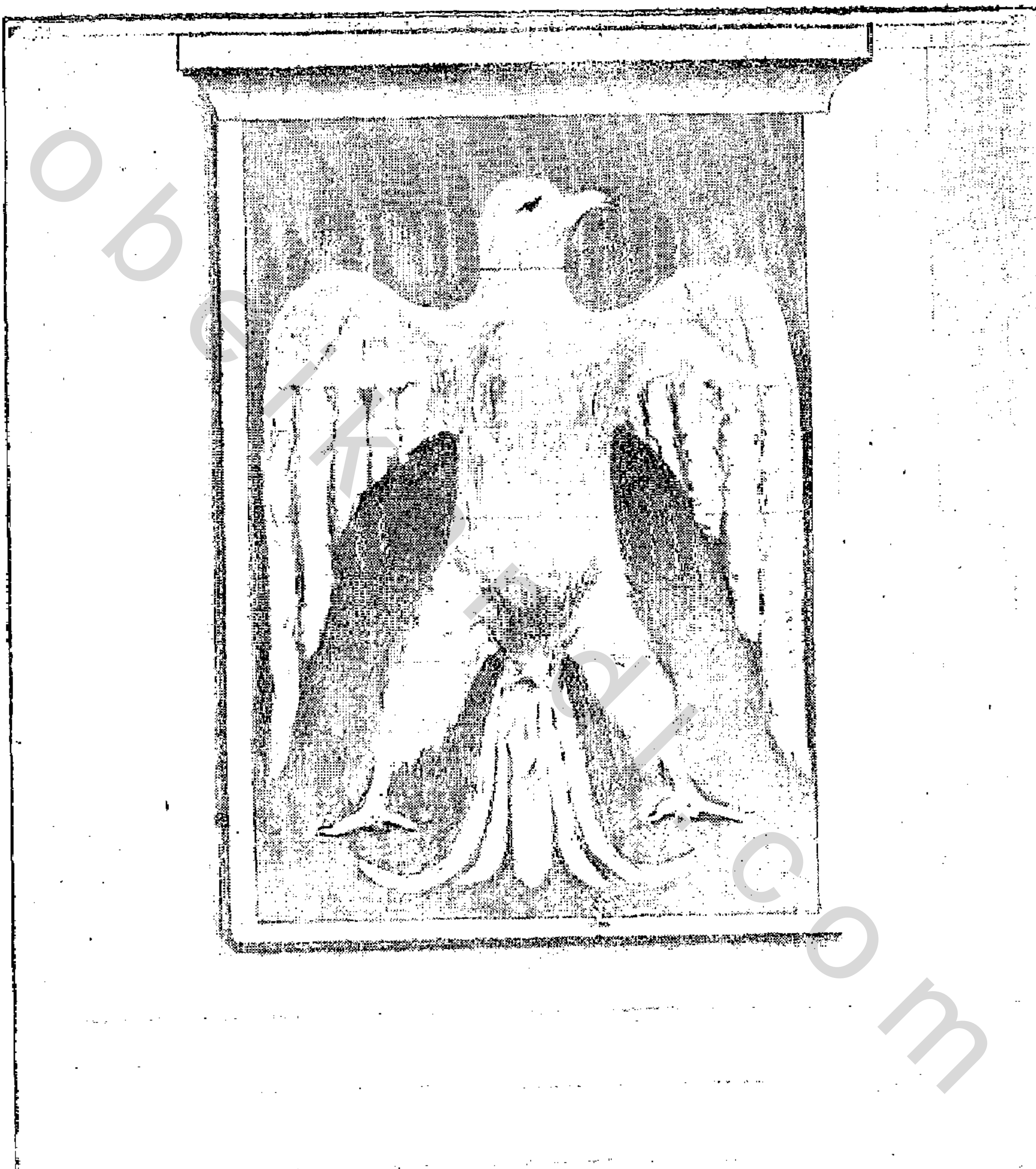

نسر على حائط القلعة

obeikandl.com

وصل إليه أخوه طوران شاه والى اليمن ، بعد أن أرسل إليه خطاباً يعلمه فيه أنه قادم عليه ، وفى الخطاب شعر من عمل ابن المنجم المصرى يدل على الأخلاص والطاعة لأخيه صلاح الدين كقوله

وأقدمن إليـه قلبي مخبراً أنى بجسمى من قريب أتبع

رأى صلاح الدين وقد غاب عن مصر سنتين أن يتفقد حالها بنفسه ، فعزم على الرحيل إليها ، فأقام أخاه طوران شاه المذكور مكانه وسار إليها فوصلها وأخذ يرتب أمورها ويقيم الأبنية فيها ، وفي هذه المرة بدأ فعلا فى بناء القلعة والسور

أما القلعة فقد كانت من يوم تأسيسها إلى اليوم عرضة للتغيير والتبديل حتي خرجت عما كانت عليه أولا ، والذى يوجد بها الآن من بقايا السلطان صلاح الدين إنما هو ذلك النسر فى إحدى حيطانها ، وقد كان هذا النسر علم صلاح الدين الشخصي « نسر أحمر في قماش أصفر »

أما سور المدينة فقد أخبرنى حضرة الفاضل يوسف أفندى أحمد مفتش دار الآثار العربية بأنهم عثروا على جزء منه مع بوابة من بواباته وذلك أثناء حفرهم على أنقاض مدينة الفسطاط ؛ وليس سور صلاح الدين بالوحيد ، فقد بنى قبل ذلك مرتين ، الأولى حين بناه جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمي عند ما اختط له مدينة القاهرة ، والثانية حين بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، بناه حول السور الأول ، وهذان السوران بنيا باللبن ، أما سور صلاح الدين فقد بنى بالحجارة ؛ تولى أمر بنائه قراقوش الأسدى ، وكان غرضه أن يضم الأبنيـة جميعها داخل

الافرنج وعاد إلى مخاطبتهم على أن يعودوا ، فوصل هـذا الخبر إلى نور الدين ، فترك تردده وأسرع فى إرسال جنده حتى لا يصل الأفرنج قبله

وفوق هذا فقـد بيّن شيركوه لنور الدين ما لامتلاك مصر من الفوائد في حرب الأفرنج فى الشام ، فأنه من دلتا مصر يمكنهم أن يرسلوا جيشاً يحارب السواحل الشامية ويناوئ النجدات الأوروبية ،وبامتلاك مصر تصبح القدس بين نارين ، نار من الشام ونار من مصر نفسها ؛ غير أنه لا بد لنا من ملاحظة شىء هام في إلحاح شيركوه على نور الدين ، إذ كان يطمع فى امتلاك مصر ليكون مستقلا بها ولو بعض الاستقلال ، لأنه لم يكن في مركزه الحالى إلا عاملا من عمال نور الدين، أما إذا امتلك مصر فأنه سيكون ممثله فيها ، فهو مستقل عنه نوعاما . على أى حال من الأحوال وعلى أى غرض أقام دفاعه ، فلقد كان شيركوه الشخص الوحيـد الذى وحد قوات مصر والشام وأسس أسرة تحكم الديار المصرية

ما زال شيركوه يسهل الأمر على نور الدين ويحسن له فتح مصر حتى رضى بتجريد حملة إليها ، وهنا وطد شيركوه العزم وشد الرحال وجهز الجيش وأخذ معه شاورا وابن أخيه صلاح الدين ، وقام نور الدين بنفسه لوداعهم ، ثم بدأ يغزو حدود مملكة القدس حتى لا يتنبه الأفرنج إلى حماته وهى تسير نحو مصر بجوار حدود مملكتهم ؛ وبهذا وصـل شيركوه ونازل الضرغام

انهزمت الجيوش المصرية عند بلبيس فتقهقرت إلى جدران القاهرة وتحصنت فيها ، فاحتل الاكراد الفسطاط ، والضرغام وجنوده داخل

obeikandl.com

السور ، ثم حفر حوله خندقاً عظيما

عاد السلطان صلاح الدين إلى مصر بعد أن رتب أمور الشام ، وبعد أن هادن الأفرنج وحالف الملك الصالح وأقاربه ، وبعد أن ركن الباطنية إلى الخلود والسكينة ؛ بيد أن التاريخ يحدثنا عن مقدار العهود والمواثيق عند هؤلاء الأفرنج ، إذ لم يكن لها عندهم وزن ولا قيمة أكثر من أنها فرصة يتحينون بها الوقت الملائم للعمل ؛ فلما علموا بغياب السلطان عن الشام ، قاموا فى جهات شمالى القدس يغزون البلاد وينهبون العباد ، شأنهم منذ حلوا تلك الديار ، فغزت طائفة منهم بعلبك من غير جدوى ، وأخرى ولت وجهها نحو دمشق فانتصرت على المسلمين انتصاراً تمكنت به من أسر جماعة من المسلمين من بينهم ابن السلار أحد قواد أجناد الشام المشهورين وانهزم طوران شاه هزيمة منكرة

علم السلطان بما فعل الأفرنج ، فغزى جهات فلسطين الجنوبية ، وما وصل إلى الرملة حتى فاجأه ملك القدس وشتت شمل جيشه وأوقع به هزيمة كاد يقع فيها السلطان أسيراً ، وكتب إلى أخيه طوران شاه كتاباً يبلغه ما وقع له ، جاء فى أوله

ذكرتك والخطي يخطر بيننا ... وقد نهلت منها المثقفة السمر

ويقول فيه « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى . وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر — » وقعت هذه الحوادث فى سنة ٥٧٣ هـ ، وقد أسر فى هذه المواقع الفقيه عيسى الهكارى وفداه السلطان بعد ذلك بمبلغ كبير من المال

قفل السلطان راجعاً إلى مصر وهو على غاية ما يكون من التعب هو ومن بقي معه من الجنود ، فأعد العدة وأخذ يجمع الجيوش ليغادر بها الديار المصرية ليقضى بها على هؤلاء الأفرنج ، وبعد ثلاثة أشهر (في شعبان) قاد السلطان جيشه إلى الشام ، واتصل بالدمشقيين ، وأخذ يناوىء الأفرنج الذين قاموا قبل وصوله بغزو حماه التي امتنعت عليهم ، فارتدوا عنها إلى حارم ، وكانت إقطاعاً لكمشتكين ، وكان الملك الصالح قد قبض عليه في خلال تلك المدة وعذبه على قتله أبا صالح الأعجمي ، وكان من المقربين إلى نور الدين ؛ علم الأفرنج بهذا الحال فحاصروا حارم ، ولم يتخلوا عنها إلا بعد أن عرض عليهم الملك الصالح مبلغاً من المال ليرحلوا عنها

طلب طوران شاه من السلطان لنفسه بعلبك وكانت في يد ابن المقدم الذي امتنع عن تسليمها ، فكانت بهذا فتنة بينه وبين السلطان ، إلا أنه أعطي بدلا منها كفر طاب وماجاورها

رأى الأفرنج أنفسهم وقد ضعفوا ، فأخذوا يحيطون أنفسهم وبلادهم بالمعاقل والحصون ، فبدأوا ببناء قلعة بالقرب من سهل بنياس عند بيت يعقوب عليه السلام ، بمكان يعرف بمخاضة الأحزان ، وكان هذا المكان حرماً بين المسلمين والأفرنج

وجد صلاح الدين فى إقامة هذه القلعة خطراً يهدده لجودة موقعها ، فوهب لهم المال ليكفوا عن البناء فلم يقبلوا ، واستمروا حتى أكملوا بناءها ، وكانت هذه القلعة هى قلعة يعقوب الشهيرة ؛ ملأها الأفرنج بالذخيرة والميرة ، فكانت مركز دفاع حصين ، ومنبع مدد كبير ، وفيها يقول ابن

الساعاتي الدمشقي

أتسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى أوطانها وهي تحلف
نصحتكموا والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

قاد الملك بلدوين الرابع بعد هـذا جيشاً نزل به على أعمال دمشق ، فأرسل السلطانُ الأميرَ فروخشاه بن أخيه بجيش لحربهم ، فنازلهم وجهاً لوجه ، وانتصر عليهم انتصاراً باهراً كاد يأخذ الملك فيه أسيراً لولا بسالة إفرنجي يسمى همفرى بعد أن جرح جرحاً بليغاً كان السبب فى هلاكه بعد اثنى عشر يوماً ، ففقد الأفرنج بموته بطلا من أبطالهم المقدمين

أما السلطان فأنه ذهب إلى بنياس لتخريب قلعة يعقوب ، فأقام عليها الحصار حتى تأتى له بقية الجند ، وهو فى هـذا الحين يشاغل الأفرنج الآخرين ، فيرسل السرايا لتنهب البلاد المجاورة كصيدا وبيروت

علم ملك الأفرنج بمـا يقوم به المسلمون من النهب والسلب وشن الغارات على بلاده ، وأراد أن يمحوا عاراً ركبه فى الموقعة الماضية ، فجمع جيشاً اشترك فيه كثير من عليتهم ، وساروا من صفـد إلى أعالى وادى الأردن ، ونزلوا بمرج العيون ، وأوقعوا بالمسلمين هناك واقعة ظنوا أنهم قد قضوا بها عليهم ، وما هى إلا لحظة نادى فيها السلطان على جيشه فتجمع ، وهب الـكل صفاً واحداً وضربوا ضربة مؤلمة قاسية ، فقتلوا عدداً كبيراً ، وأسروا خلقاً عظيما • بيد أن الموقعة نفسها لم تـكن بذات خطر إلا من حيث أنه قـد أسر فيها كثيرون ، من بينهم رياموند صاحب طرابلس ، وبولدوين صاحب الرملة ، وهوج صاحب طبرية ، وغيرهم ، وكان عماد الدين

الكاتب المشهور يكتب هؤلاء الأسرى على ضوء مشعل في خيمة السلطان يوم الأحد ثاني المحرم سنة ٥٧٥ هـ (١٠ يونيه سنة ١١٧٩ م) أما صاحب الرملة فقد فدى نفسه بمبلغ ١٥٠ ألف قطعة من الذهب ، وتعهد بإطلاق سراح ألف من أسرى المسلمين الذين كانوا لا يزالون في الأسر عنده

عاد السلطان بعد شهرين من هذه الموقعة إلى حصار قلعة يعقوب ، ولم يطل مقامه أمامها أكثر من خمسة أيام حتى استولى عليها ، وأسر من فيها من الأفرنج ، وأرسلهم إلى دمشق بعد أن فك اعتقال من كان بها من المسلمين ، ثم أمر بهدمها فهدمت حتى جعلها هي وما جاورها من السهل سواء ، وفي هذا يقول النشو بن نفاذه

هلاك الفرنج أتي عاجلا وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها

أصبح مركز الأفرنج بعد تخريب هذه القلعة في خطر شديد ، فأن السلطان صلاح الدين بما أعد من الأساطيل قد هاجم عكا ونهب جهاتها ، وقام المسلمون بالسلب في جهات صفد وهددوا طبرية ، فلم ير ملك القدس وأعضاء مجلسه إلا أن يهادنوا السلطان فهادنهم لمدة سنتين ، ولم تدخل في هذه المهادنة طرابلس ولا أنطاكية ، فناوأ مسلموا الشمال أهل طرابلس الذين لم يجسروا على البعد عن قلاعهم ، وانتهى أمرهم بأن صالحوا المسلمين ، وبقيت أنطاكية وحدها وقد نشبت فيها الاختلافات الحزبية فلم تقدم على عمل عدائي للمسلمين . ويقول ميشود عن هذه الهدنة إنها جديرة بالاعتبار ، لأن المسلمين حافظوا على عهودهم ومواثيقهم ، في حين أن

الأفرنج ، كعادتهم ، اتخذوها وسيلة لأعلان حرب أخرى

ولى السلطان صلاح الدين وجهه نحو إتمام مهمته فى الشمال ، إذ قد حدث أن أمير حصن كيفا كان قد تزوج بابنة قليج أرسلان سلطان قونية غير أن الأمير بعد قليل عاملها معاملة سيئة وتزوج من فتاة مغنية ، فكان هذا سبباً فى أن أعان قليج أرسلان الحرب على الأمير نور الدين صاحب حصن كيفا ، وكان هذا الأمير حليف السلطان صلاح الدين بمقتضى الصلح الذى عقد بعد حصار حلب الأخير ، فكان على السلطان بموجب هذا أن يدافع عن حليفه ، لا سيما وأنه هو نفسه على عداوة مع قليج أرسلان منذ حصلت واقعة حصن رعبان ، بيد أن الأمر لم يطل إذ انتهى بين الطرفين المتعاديين من غير إهراق قطرة دم واحدة ، وقد مكن هذا الصلح السلطان من السير شمالا لمحاربة الأمير الارمنى روبين صاحب أرمينيا الصغرى ، وقد وقعت بينهما واقعة خضع بعدها روبين وأخذ على نفسه المواثيق والعهود ألا يتعرض إلى الرعاة الأتراك الذين يرعون بجانب بلاده

علم جمهور المسلمين فى تلك النواحى بما ناله السلطان صلاح الدين من النصر في كل مكان ، فعرفوا قوته وأدركوا سطوته فتقدم الجميع لمحالفته والدخول تحت كنفه وقبول سيادته ، فعقدت محالفة كبرى فى جمادى الأولى سنة ٥٧٦ هـ (اكتوبر سنة ١١٨٠ م) وقد وقع عليها أمراء الجزيرة كلهم وهم أمير الموصل وصاحب الجزيرة ، وأربل ، وكيفا ، وماردين ، وسلطان قونيا ، وملك أرمينيا أيضاً . كانت مدة هذه المعاهدة سنتين أخذ القوم على أنفسهم الأيمان والمواثيق ألا يشهروا فيها سيفاً ، فانتهت الحرب بهـا

فى تلك الجهات ؛ ومن هذه المحالفة ندرك ما وصل إليه السلطان صلاح الدين من المركز الكبير الهام ، وما وصلت إليه قوته ، فانتشر اسمه فيما بين البحر الأسود وخليج الفرس شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً ؛ كما أن هذه المحالفة دلت دلالة واضحة على إمكان جمع شتات هذه الأمارات كلها والدخول بها مع الأفرنج فى حرب دينية مقدسة ، كما كانت بلا شك الحجر الأول الذى وضع لتلك الحروب القادمة مع الأفرنج ، على أنه لا يزال أمام السلطان صلاح الدين بعض الأعمال الأخرى حتى يستطيع القيام بأمر الجهاد الذى وضعه أمام عينيه منذ تولى وزارة مصر

رأى صلاح الدين وقد هادن الأفرنج والمسلمين على السواء أن الفرصة ملائمة لزيارة مصر ليرى ما يجرى فيها من الأعمال ، فشد الرحال إليها وبدأ السير فى رجب سنة ٥٧٦ هـ (أواخر سنة ١١٨٠ م) تاركاً الأمير فروخشاه بن أخيه يدير دفة الأمور في الشام

وصل إلى مصر وأخذ ينظم أمورها وينشئ المدارس والمسالك والطرق والجسور ، ثم خطر له أن يحصن الأسكندرية على ظن أن أهل أوروبا قد تهاجمه فيها ، ويقال إن سبب عودته إلى مصر كان لوفاة أخيه طوران شاه الذي تولى بعلبك ثم تركها لولاية الأسكندرية مع اليمن بولى عليها من ينوب عنه

قبض رينولد (أرناط) صاحب الكرك على قافلة تجارية كانت قد مرت بالقرب من بلاده ونهبها وأسر أهلها وخالف شروط الهدنة ، وحصل أن دنت من ثغر دمياط مركب تقل كثيراً من حجاج المسيحيين الأوربيين ، فقبض عليها السلطان جزاء ما صنعه أمير الكرك مع قافلة المسلمين

وجاء إلى السلطان أن سيف الدين غازى صاحب الموصل قد مات وترك بلاده وملكه إلى أخيه عز الدين مسعود ، عدا جزيرة ابن عمر فأنه أعطاها لولده سنجر شاه ، كما أعطى قلعة عقر الحميدية لولده ناصر الدين كشك وجعل أمرهما بعد موته إلى أخيه عز الدين هذا ، وما اختار عزالدين لملكه إلا خوفاً على بلاده من السلطان ، إذ كان ولده الأكبر سنجرشاه لا يزيد سنه على اثنتى عشرة سنة قُبيل وفاته

وصل إليه بعد ذلك خبر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين (٢٥ رجب سنة ٥٧٧ ـ ٤ ديسمبر سنة ١١٨١) وكان عمره حين وفاته نحو ١٩ سنة ، فأوصى بملكه إلى ابن عمه عز الدين مسعود والى الموصل إذ ذاك دون أن يوصى به إلى عماد الدين صاحب سنجار وهو زوج أخته ، لعلمه أنه لا يقوى على الاحتفاظ من إغارة السلطان الذى إذا ملك حلب ملك كل ما لأهلهم من البلاد ، أما عز الدين مسعود فقد أصبح بما له من البلاد فى الموصل قادراً على جمع الجيوش الجرارة ومحاربة السلطان ، ولما تم تنازل الملك الصالح إسماعيل عن ملكه إلى عز الدين مسعود غادر الموصل إلى حلب ، وما كاد يطيب له المقام هناك حتى كتب إليه أخوه عماد الدين صاحب سنجار فى أن يستبدل حلب بسنجار ، فأجابه إلى ما طلب ، فرحل إليه وتسلم منه حلب فى ١٣ محرم سنة ٥٧٨ (١٦ مايو سنة ١١٨٢) وسلم سنجار ، وعندئذ عاد عز الدين إلى الموصل

وقد قابل أهالى عدة بلاد من بلاد الشام والجزيرة هذه الحوادث بالفرح والسرور حتى كاد يخرج بعض بلاد صلاح الدين من يده ، وينضم إلى حلب أو غيرها

أما السلطان فأنه حزن حزناً شديداً لموت الملك الصالح ، ورأى في تغيبه عن بلاد الشام خسارة عليه ، على زعم أنه هو الوارث الحق لملك الملك الصالح ، ولأنه كان يفكر على الدوام فى أنه لا سبيل إلى منازلة حلب إلا بعد وفاة الملك الصالح ؛ ولكن تملك رجل كعماد الدين هذه المدينة كان من غير شك عقبة جديدة في سبيله إليها؛ على أنه فوق هذا لا يستطيع القيام بعمل عدائى في هذا الأوان ، عملا بشروط الهدنة التى كان يحافظ على تنفيذها ؛ وما عُرف عنه أنه أخل يوماً بشرط أو نقض عهداً أخذه على نفسه ؛ وما كان أمد الهدنة ينتهى إلا بعد أربعة أشهر من تسلم عماد الدين حلب ؛ غير أنه ما رغب في نقض هذه الهدنة رغم ما سمعه من أن بعض حلفائه المسلمين قد حالفوا الأفرنج وشيخ الجبل ليعمل الجميع ضده على أنه عدوهم

أسرع السلطان إلى الشام ليحمي أتباعه من جهة ، وليحتفظ ببلاده من جهة أخرى من شر تلك الفتن ، واحتفل بوداعه بمصر أناس كثيرون ، وأخذ الشعراء ينشدون القصائد في حضرته ؛ وبينما القوم فى فرحهم ومرحهم إذ بأحد المربين لأولاده قام وقال

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فانقبض السلطان وكان الأمر كما قال هذا المربى ، فأن صلاح الدين لم يعد إلى مصر بعد هذه المرة مع طولها . سار السلطان وسار معه جماعة من الأمراء وأصحاب المظاهر في الدولة ، وفيهم نفر كبير من التجار وأهل البلاد ، فمروا بمدينة إيله (العقبة) إلى طريق الصحراء ، وقدعلم السلطان

أن الأفرنج تجمعوا لمقاتلته ، فأرسل الأثقال والضعفاء إلى دمشق مع أخيه تاج الملوك بورى ، وسار هو والعسكر فشن الغارات بأطراف البلاد ، فما تجاسر إفرنجي على أن يدنو منه ، وظل فى طريقه على حاله حتى وصل دمشق ، فلما عادت الأفرنج المجتمعة إلى بلادهم وجدوا أن المسلمين بقيادة فروخشاه قد نهبوا وسلبوا بلادهم من ناحية طبرية وأغاروا على شقيف التى طالما تأذى المسلمون منها

وصل السلطان دمشق فى صفر سنة ٥٧٨ هـ (يونيه سنة ١١٨٢م) بعد أن بلغه وهو فى الطريق تخريب الشقيف ، ففرح فرحاً شديداً . وصل دمشق وأراح بها جنده ثم أخذهم بعد شهر تقريباً وشن الغارة بهم على بلاد الأفرنج الذين قد تجمعوا في جهات طبرية ، فأشبعهم قتلا ، ودخل بجنده مدينة بيسان ثم عاد إلى دمشق يحمل ما قدغنم

ثم غادرها بعد شهر إلى حصار بيروت براً بعد أن حاصرها من البحر أسطول مصري ، غير أنه رجع عنها قاصداً بلاد الجزيرة بدعوة من كوكبورى صاحب حران لخوفه من صاحب الموصل ، وما كان السلطان ليتأخر لحظة واحدة عن التدخل فى أمر تلك البلاد ، وما هى إلا أيام من تلك الدعوة حتى انقضى أمد المعاهدة ، ووجد السلطان كثيراً من الأمراء يراسلونه فى الدخول تحت طاعته ، يتقدمهم كوكبورى المذكور ، ونور الدين صاحب حصن كيفا ، ثم تبعهما صاحب بلاد الرها وسروج والرقة وقرقيسيا ونصيبين ، وبهذا سهل عليه الطريق إلى حصار الموصل التى لم يبق من أمراء بلاد المسلمين من ينافسه سوى صاحبها . حاصرها فامتنعت عليه فغادرها بعد شهر من

حصارها، وولى وجهه نحو سنجار فاستولى عليها في ٢ رمضان سنة ٥٧٨ ﻫ (٣٠ ديسمبر سنة ١١٨٢) وأرسل حاكمها وحاشيته إلى الموصل بكل حفاوة وإكرام

في خلال هذا وصلته أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ومحاولتهم غزو جهاتها ، فلم يعبأ بهذا النبأ وقال « دعوهم يعملون ما يشاؤن ، فأنهم إنما يستولون على قرى وكفور ، في حين أننا ها نأخذ مدناً وبلاداً ، فاذا ما عدنا إليهم جئنا لهم بجنود لا قبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون »

هذه العبارة وحدها كافية لادراك سياسة السلطان صلاح الدين باهتمامه في التدخل في شؤن الأمراء المسلمين ، لاعتقاده أنه اذا تغلب عليهم ، وضمهم إلى صفوفه ، استطاع أن يخوض بهم غمار الحرب الدينية لاسترداد القدس وغيرها من البلاد التي ملكها الأفرنج ، وهي تلك الأمنية التي تطاول إليها منذ زمن بعيد ، وهي التي في الحقيقة ساعدت على إعلاء كلمته وجمع قلوب المسلمين حوله ، وتآلفهم وتعاضدهم معه على قتال هؤلاء المغيرين الذين لم يراعوا في السكان إلاً ولا ذمة ، ولم يحفظوا العهود ، ولم يراعوا المواثيق ، ولم يخافوا الله في سفك دماء المسلمين ، مما لم يغفل كتاب الأفرنج أنفسهم أمره والاقرار به

ترك السلطان سنجار بعد أن أقام فيها الحرس اللازم لحفظها ، ثم سار إلى حصن آمد وملكه بعد حصار ثمانية أيام ، وكانت آمد هذه من المدن الشهيرة بسورها القوي ، وأبوابها الحديدية ، ومكتبتها الجامعة ؛ وفي أثناء

ترتيب أمورها وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا علم أن عماد الدين صاحب حلب قد انضم إلى الأفرنج وبدأ يعمل معهم في إحراق المدن التابعة له ، فعبر الفرات واستولى فى طريقه على عينتاب ، وفى يوم ١٦ محرم سنة ٥٧٩ (٢١ مايو سنة ١١٨٣) عسكر مرة أخرى أمام حلب التي لم يكن بها عماد الدين على الحالة التى كان بها في سنجار ، وأحب أن يرجع إلى سنجار ، فلم يبد مقاومة تذكر ، وكان السلطان يريد حلب لأنها عاصمة سوريا الشمالية . اتفق الفريقان على استبدال الواحدة بالأخرى مع ضم كل ما حول سنجار من المدن مثل نصيبين والخابور والرقة وسروج إليها ، وشرط السلطان على عماد الدين المذكور – كما يقول صاحب حماه – الخضوع لخدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه ، فتم ذلك ودخل صلاح الدين حلب يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٩ (١٩ يونيه سنة ١١٨٣) بين فرح الأهالى وسرورهم ، وحق لهم ذلك فما صلاح الدين إلا سلطانهم ، ولم يكن فى الناس مثله ملكا قوياً عادلا كريماً . احتفل القوم بتملكه المدينة إحتفالا كبيراً ، وأخذ الشعراء والخطباء ينشدون ويخطبون ، والسلطان لا يقل فرحه بها عن فرحهم به ، لولا ما بلغه من خبر وفاة أخيه تاج الملوك بورى وهو على حصار حلب ، إلا أن السلطان أسر الخبر في نفسه ولم يبده للأهالى حتى لا يفسد عليهم مسرتهم ، ومن عجيب ما وقع أن محيي الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح السلطان بقصيدة جاء فيها

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب

وقد اتفق أن فتح القدس في رجب ولو أنه لم يقع إلا بعد أربع

obeikandi.com

سنوات من هذا التاريخ

أصبح السلطان بامتلاكه حلباً سيد أمراء المسلمين وأقواهم وأعظمهم شأناً وأعلاهم كعباً ، فقد كان سلطانه ينشر أجنحته على تلك الجهات من الرملة إلى حوض النيل ، ويمتد ظله فيعم سواحل إفريقية الشمالية حتى طرابلس ، وخضعت له بلاد اليمن وعدن ، وخُطب له على المنابر فى هذه الجهات كلها

أصبح السلطان الآن سيد القوم وصاحب البلاد كلها خلا الموصل وهو يعلم مقدار جبن صاحبها ، وما كان ليؤذى السلطان فى ملكه ويقف عثرة فى سبيله سوى تلك الجهات الساحلية وبيت المقدس إذ كانت لا تزال فى أيدى أعدائه الأفرنج ، فما كان ليرتاح ضميره ويطمئن خاطره إلا إذا قضى على آمال هؤلاء القوم ، فيقص من جناحهم ويأخذ من بلادهم ما يتركهم أمامه كمية مهملة ، وليس عنده ما يهتم به فيذكره صباح مساء سوى القدس واسترجاعها ، وإليك ما قاله ابن شداد «فانظر إلى هذه الهمة التى لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد»

ظل السلطان فى حلب ينظم أمورها ويرتب أحوالها حتى فارقها إلى دمشق يوم ٣ جمادى الأولى سنة ٥٧٩ (١٤ أغسطس سنة ١١٨٣) وقد تشجع الأفرنج أثناء غيبته فى جهات الشمال لاسيما وقد مات نائبه فروخشاه ، وقاموا بأحراق عدة بلاد على مقربة من دمشق ، وغزا أمير الكرك البلاد العربية وكاد يدخل المدينة المنورة لولا يقظة الأمير لؤلؤ إذ أدركه وشتت شمله وأسر رجاله وبعث ببعضهم إلى المدينة وبالآخرين إلى مصر ، وكاد أمير

الكرك نفسه يقع فى الأسر ؛ فكان من واجب السلطان أن يعاقب هؤلاء ، لا سيما وقد أصبح آمناً من جهة الشمال ، فعبر نهر الأردن وأغار على بيسان فأحرقها واستمر حتى تقابل مع جيوش الأفرنج فى جهات الفولا ، وكان عدد الأفرنج كبيراً جداً ، على أن هؤلاء تحاشوا خوض معركة معه ، لا سيما وقد أخذ قوادهم يتنافسون حتى دخل عليهم الشتاء ، وانتهى الأمر بأن انسحبوا متراجعين إلى صفورية يحوطهم الخزي والخجل

سار السلطان بعد ذلك إلى حصار الكرك التى كانت عقبة فى طريقه بين مصر والشام . هاجمها ولكن من غير جدوى ، ثم أعاد عليها الكرة بعد سنة من أوبته من حلب (جمادى الأولى سنة ٥٨٠ — أغسطس سنة ١١٨٤) ولكن من غير نتيجة كذلك

اجتمعت كلمة الأفرنج جميعاً على مهادنة السلطان ، فعقدوا معه صلحاً لمدة أربع سنوات ، فولى السلطان وجهه نحو تنظيم أحوال ملكه ، فذهب تواً إلى دمشق عاصمة بلاده ، وسيدة جهاته ، وعروس الشرق ، وجنة الشام كلها

فى هذا الأوان سعى أمير الموصل ، بموافقة الخليفة العباسي ، فى الصلح مع السلطان صلاح الدين ، وأرسل فى ذلك مندوباً هو بهاء الدين ابن شداد الذى أحبه السلطان حباً شديداً ، وصل بهاء الدين وشيخ الشيوخ صدر الدين إلى دمشق فى شوال سنة ٥٧٩ (فبراير سنة ١١٨٤) فعرض السلطان صلاح الدين على القاضى بهاء الدين مكاناً رفيعاً فى ملكه بمصر ، فأبى ما دام مندوباً عن صاحب الموصل ، أقاما فى دمشق أياما لفصل الحال ،

فلم يوفقا إليه ، فعادا يوم الخميس ٧ ذى الحجة سنة ٥٧٩ (٢٣ مارس سنة ١١٨٤)وحاول صاحب الموصل إقناع السلطان فلم يفلح؛ فعبر السلطان نهر الفرات فى المحرم سنة ٥٨١ وسار حتى وصل الموصل وحاصرها ، فأرسل صاحبها والدته وابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء يطلبن من السلطان الصلح ، فأبى عليهن وردهن — كما يقول صاحب كتاب حماه — واستقبح الناس ذلك من السلطان لا سيما وفيهن بنت نور الدين

على أن السلطان قفل راجعاً عن حصارها حين بلغه الخلاف الذى وقع في جهات أرمينية ، فرحل اليها واستولى في طريقه على ميّا فارقين فى أواخر ربيع الآخر سنة ٥٨١ (أغسطس سنة ١١٨٥)ثم عاد إلى الموصل إلا أنه مرض واضطر إلى الانسحاب إلى حران ، واتفق أن صاحب الموصل ، كان قد حرر شروطاً أخرى للصلح وأرسل بها إلى السلطان ، فأدركه الرسول وهو في طريقه إلى حران ، وكانت تقضى هذه الشروط بأن يخطب للسلطان على منابر الموصل وأن تسلم عدة بلاد اليه وأن يضرب السكة باسمه

وصل السلطان حران وفيها اشتد عليه المرض ، فأصبح بين اليأس والرجاء ، وتأكد بعض القوم أن السلطان لابد ملاق حتفه في هذه المرة ، فجمع قواده واستحلفهم على الطاعة لأولاده ، غير أنه ما لبث أن تماثل إلى الشفاء في أواخر القعدة سنة ٥٨١ (فبراير سنة ١١٨٥) وهو الأوان الذى وصلت فيه رسل صاحب الموصل وعلى رأسهم القاضى بهاء الدين بن شداد لتوقيع شروط الصلح . أصبح السلطان صلاح الدين بمقتضى هذا الصلح سيد

جهات الجزيرة الشمالية وجزء من بلاد الكردستان . قام السلطان بعد ذلك من حران واستراح قليلا فى حمص وفيها قُتل ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحبها ، وكان قد كاتب أمراء دمشق على الطاعة له إذا مات السلطان ، فاستخلف السلطان ولده ناصر الدين هذا واسمه شيركوه ، وكان شابا صغيرا ، فلما مثل بين يديه سأله عن مقدار مايعرف من كتاب الله ، فقال على الفور : إلى حد قوله تعالى « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » فخجل السلطان وأقره مكان أبيه ، ثم سار حتى وصل حلب ومنها فى المحرم سنة ٥٨٢ (إبريل سنة ١١٨٨) سار إلى دمشق فقوبل فيها بكل ابتهاج وسرور

إلى هنا ينتهي بنا المقال على الدور الثانى من حياة السلطان صلاح الدين ، وهو الذى قام فيه بجمع كلمة المسلمين وضمهم تحت لوائه وأخذهم إلى ناحية ، ليستعين بهم على جهاده العظيم وحربه القادمة مع الأفرنج الذين احتلوا البلاد ومزقوا وحدة المسلمين فيها ونهبوا وسلبوا كل ما كان لهم ، ومسخوا ما ترك العرب فيها من آثار العمران ، بعد أن أخذوا ما تركه المسلمون الأولون فى مساجدهم من المخلفات القيمة الدالة على ما كان لهم من مجد وعلم وحضارة